

نظريات فى نشأة التطور الاخلاقى

وكيف أن الصعوبات تكون الافراد وأخلاقهم

للعربية الفضلى : السيدة نظلة الحكيم

ملاحظة : هذا المقال مقتطف من محاضرة ألقىت على الجمهور؛ وقد عالجتها الموضوع بطريقة عملية تمشياً مع روح التربية الحديثة ، فما تناولته من البحث فى نشأة التطور الاخلاقى لم يكن فى حد ذاته العامل الأساسى الذى حملنى على التفكير فى هذه الناحية، وإنما أساس تفكيرى فى هذا الموضوع قائم على مشاهداتى للتصرفات العملية لبعض الافراد، ممن واجهوا كثيراً من عقبات الحياة ؛ ولقد لفت نظرى، بصفة خاصة فى البلاد الأوربية، نوع من معاملة الأمهات لأولادهن : ذلك أنى شاهدت فى بعض الأسرات أن الأم تختص بعطفها وحنانها ومساعدتها المادية ابناً واحداً أو بنتاً واحدة من بناتها ، وتهمل الآخرين إهمالاً ظاهراً.

ولعل « مارى تريزا » أفضل مثال يخلده التاريخ لهذه الفئة من الأمهات، فانها قد تحيزت لبنت من بناتها إلى حد كبير، حتى أن الزائر لمعرض الأشياء التى كانت تستعملها، والذى يقام عادة بمدينة فيينا، قد يجد لهذه البنت من التحف القيمة الشيء الكثير، مما هوأكثر شياً بتحف الملكة نفسها، ولكنه قلما يعثر على شيء خاص بباقي بناتها .

ولكنى لاحظت أن النتيجة النهائية هى فوز مضمون الحقوق ، لأنهم يأخذون على عاتقهم مسئولية حياتهم، ويندمجون فى سلك الحياة العملية؛ فيكشفون من أسرار الفن وأخلاق الناس ما يسلكون به السبيل السوى فى العمل والمعاملات.

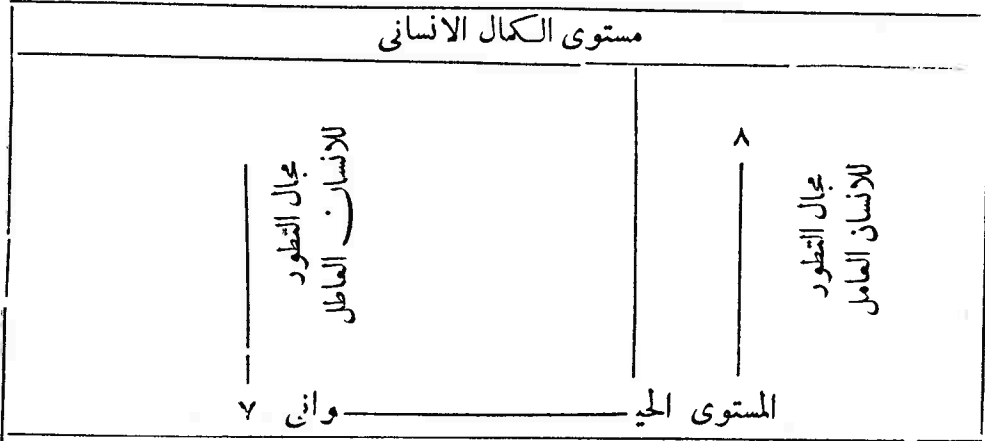
لقد تبين أن الذين يتحملون كثيراً من متاعب الحياة، يكونون فى الواقع أنفع من غيرهم ممن وجدوا كل شيء معداً لهم فحصلوا عليه بدون عناء ؛ وأرى أيضاً أن المجاهدين فى الحياة أمتن الناس أخلاقاً، حتى اليأس منهم أفضل على غيره ممن تشبهوا فى الحياة، لا بفضلهم، بل بفضل ما وجدوه معداً لهم.

وأبناء الشقاء هم أيضاً أصحاب الخبرة وأولو التفكير الدقيق، ومن لا تفكير له لا حياة له؛ اللهم إلا حياة حيوانية ، والذى يحيا حياة حيوانية فهو أقل انتفاعاً بخيرات العالم من غيره، بل هو عالة على المجتمع الذى يعيش فيه . وفى نظرى أن الفرد الذى لا يستفيد من ميزته العقلية هو أقل فائدة من دواب الحمل التى نستخدمها فى شتى الأعمال .

والآن أحاول أن أرسم صورة لحضرات القراء أصور بها الإنسان المفكر العامل، وإلى جانبه الإنسان العالة، الذي لا يتساوى حتى بدواب الحمل في القيمة.

اعتماد الناس رسم خطوط بيانية للحرارة وغيرها، حتى أنهم وضعوا مقاييس للذكاء، ولم يتعرض أحد لعمل أى رسم بياني للتطور الاخلاقي، فلنفرض أن الشكل الآتى يدلنا على بعض النسب المطلوبة :

مستوى الكمال المطلق



الآن دعونا ننظر إلى العالم كما صورته لنا العقول المفكرة التى أخذنا عنها كثيراً من مادتنا العلمية، ولتكن وجهتنا دائماً الانتفاع بجميع ماوصلت إليه نهائياً مدارس الفكر على اختلاف نزعاتها، لأننى لا أريد أن أشهر حرباً على جماعة المفكرين، بل أو كدحضراتكم أنه ما من شيء يؤلمنى أكثر من ذلك الخلاف الذى يحصل عادة بين كبار العلماء، فيندفع كل منهم إلى الاستئثار بمباحثه ووجهة نظره وقد يعادى غيره، ولذلك تبع المفكرون طريقتين غير منتجتين :

١ - إما التفاضل عن نتائج مباحث النير في أية ناحية من نواحي العلم، فكان من نتائج ذلك تثبيط عزائم ذوى الهمم .

٢ - أو أنهم اتبعوا طرق النقد المرة بل القذف، ليدلوا على أن ما أورده فلان أو غيره إنما هو مجرد سخف ؛ ولكن على الرغم من ذلك كله فقد وصل العالم أخيراً إلى مرتبة عرف بها أنه من الضروري إيجاد حلقات الاتصال بين مختلف النظريات، وهذه كانت من أهم الخطوات سداداً، وأسعدها من حيث التقدم الخلقى فى العالم ؛ فإن العناية ببحث وخص نظريات الغير كانت أكبر العوامل التى ساعدت على احترام آراء النير وتقدير جهودهم ، ولذلك نرى أنه كلما ارتقت الأمم، كانت الخصومة بين أفرادها دفاعاً عن مبدأ لا للشاحنات الشخصية. والحقيقة أنا إذا عرضنا أطوار الكائنات وانتقالها من طور إلى طور، وجدنا أنه من الممكن أن يكون فى

المملكة الانسانية العالم الجدد، والمفكر العظيم، عضداً لغيره من الأفراد الذين ساء حظهم فجادوا عن طريق الصواب، متأثرين إما بطبيعتهم في حد ذاتها أو بقول غيرهم؛ وقد يحيد المرء عما يبد صواباً في زمنه لشذوذ في طبيعته؛ هو في الحقيقة معذور فيه، وهو في هذه الحال يستحق عطف الغير ممن من الله عليهم بطبيعة هادئة سهلة .

أما من جهة التأثير بنتائج عقول الغير، فإن الكثيرين يخطئون في اتخاذ نتائج أفكار غيرهم وتطبيقها على أحوالهم الخاصة، ناسين أن ما يكون طعمة سائغة لأحد يكون سما زعافاً لغيره، أو كما يقول الانجليز: (One man's meat is another's poison)

وقبل أن أعرض أطوار نشوء الكائن أقول : إن الحياة عبارة عن مغالبة بين قوى الانسان وقوى الطبيعة الممثلة في عوامل يئته، فعلى مبدأ بقاء الأصلاح تتلاشى ضعاف الكائنات ولا يبقى إلا الكائن الذي تساعده قواه وميزاته الطبيعية على الاستمرار في حياته. وكيف يكون ذلك؟ وكيف يكون استمراره في حياته؟

من الوجهة البيولوجية مؤيدة : فانه بنظرية التطور يمكننا أن نقسر أو نترجم حياة

الكائن بما يأتي :-

الكائن في أدنى أو أخطر مراتبه هو مجموعة خلايا كمن فيها العامل الحيوى واستقر، وتولدت فيه نزعة إلى النمو، هذا إذا صادفه الجو المناسب لا يقاظ هذا العامل الحيوى، والأمثلة هنا كثيرة وقريبة من العقل، فنلا : حبة القمح بها عاملها الحيوى؛ فإذا وضعت في التربة المناسبة نمت حسب طبيعتها، وكذلك الحال بالنسبة للجنين في أية بيضة، فانه إذا وجد الجو المناسب له أخذ العامل الحيوى الذى تقوم عليه طبيعته في الاستيقاظ تدريجاً حتى يستكمل نموه على حسب ما تتطلبه حياته، ولا يمكن للكائن من أى نوع أن يستمر في نموه بدون تعدد في خلاياه، وتعدد الخلايا هذا يتبع قانوناً خاصاً يختلف باختلاف نوع الكائن؛ وعليه فتعدد خلاياه لا بد أن يكون مصحوباً بحفظ النوعية، فالقطة لا تنمو لتصبح قرداً، ولا شجرة التفاح تنمو لتصبح رنجياً في الحديقة؛ ومعنى ذلك أن من هذه الخلايا المتعددة تتكون وتتميز في الكائن أجزاء أو أعضاء رئيسية، وهذه الأجزاء تقوم تدريجاً بوظائف متناسبة مع ما تتطلبه حياة كل جزء في ذاته وبغفرده، وكذلك لا بد من أن تتناسب مع مصلحة جسم الكائن بصفة عامة، وإلا تعرقل نمو الكائن ولا يستطيع الاستمرار في حياته .

وعلى ذلك نرى أن استمرار الكائن في حياته ونجاحه يتوقفان على ما يبذله كل عضو من الجهود في قيامه بوظيفته .

وعلى هذا الاعتبار تنحصر حياة الأعضاء في هذه الرياضة العملية الفرضية؛ وما الكائن في الجملة إلا مجموعة من الأعضاء .

وقد قمت بأجراء تجارب في إنجلترا وفي فرنسا لمعرفة مقدار تأثير عوامل البيئة، بمداد على أن لكل كائن عدوا إذا صح سميناه «صعوبة»، ففي اجتياز هذه الصعوبة يكون فوزه وارتياحه، وفي عدم اجتيازها يكون شقاؤه وفوته ثم تلاشيته .

أجرينا تجارب على دودة القز وغيرها من الكائنات التي تتميز بأدوار معينة في تاريخ حياتها، كما أجرينا تجارب على النبات والانسان؛ أما في حالة دودة القز وما يماثلها فانا لما وضعنا بعض العناصر المضرة بحياتها، وهي في طور البيض، أتلفت الكثير منها، وذلك لأن درجة السبات أو النوم في البيض، بحكم المرحلة التي قطعها الجنين، أكبر منها في مرحلة أعلى - مرحلة الدودة مثلا، أو مرحلتها بعد نسج الشرقة؛ فلما وضعنا العناصر المضادة لحياتها قريبا منها حولت (الدودة) والفراشة وجهتها، وفعلا انتقلت من مكانها لأنها شعرت بشيء مضاد لطبيعتها واستقرت في مكانها الجديد ولم تبرحه حتى أتى موعد خروجها كفراشة . ومباحث النبات أيضاً دللتنا على أن النبات له من القدرة ما يستطيع به تتبع الأشياء التي تساعد على حياته.

أما المباحث التي قمت بها في بحث أحوال الانسان فقد قمت بها في فرنسا مع عالم فرنسي؛ وكان جل غرض هذا الرجل أن يتحقق من النظرية الثرمونية أو الهورمية كما سماها «ماكدوجل» وهي النظرية القائلة بأن طبيعة الكائن توصله إلى غرضه، وهو أن يحيا على حسب قوانين طبيعته. وقد توصلنا إلى أن كثيراً من الحوادث التي تطرأ على صحة الجنين الانساني وحياته ترجع إلى ما يؤثر عليه ويستثير فيه شعور الراحة والطمأنينة أو العكس .

وبناء على ذلك استنتجنا أن بذور الشعور بالسرور أو الألم تحصل في حالة أولية فطرية منذ نشأة الكائن من أي نوع كان .

وعليه خلاصة النظرية أنه إذا نجح الكائن في التغلب على صعوبات بيئته، واستثمر ما بها من عوامل لمصلحته، كان له بطبيعته شيء من الفوز في ميدان جهاده، وهذا الفوز يدعو إلى ارتياحه فيتنبه فيه ما نسميه شعور «السرور» بصفة أوضح كما تقدم في رقيه .

وهنا لا بأس من الإشارة إلى نظرية فيسيولوجية تقسية تنبى إليها قديما «أرسطو طاليس» حيث

قال : « إن السرور حليف النشاط المنتج، وترجها بعض الانجليز إلى : Pleasure is the accompaniment of successful activity ومعنى ذلك أن المجهود الذي يعود بنتيجة مفيدة

ومرضية يكون مشفوعا بشعور مريح تنشأ عنه في مرحلة أرقى قوة التمييز فالشعور بالسرور. وهذه النظرية تجمع بين مبدئين طرقهما أيضا بعض علماء الأخلاق من قدماء اليونان وغيرهم، وهما مبدأ المنفعة ومبدأ السرور ، إلا أنهم تغالوا في النظرية بجعلهم السرور أساس كل عمل حتى بعد استكمال العقل، وطبعاً اخطأوا في زعمهم هذا، لأن شعور الارتياح في مبدأ حياة أي كائن إنما هو ضروري على حسب طبيعته، وهذا الشعور في عناصر الكائن (أو في طبيعته الأساسية) خلافا

بعد أن يصبح الإنسان مسيراً حسب تفكيره الخاص، أو متأثراً بنتائج أفكار غيره وبما تتطلبه التقاليد السائدة والعرف المتداول .

إنما أريد أن أقول: إن المباحث العلمية دلت على أن الكائن متى نجح في جهوده فإنه يحيا حسب قوانين طبيعته ووظيفته، ولذلك قد استند جوزيف بتل J. Butler (أحمد مصلحى الانجليز) في بحوثه الاخلاقية، فقرر أن أحسن عيشة يعيشها الانسان هي تلك التى يعيش فيها على حسب ما تتطلبه طبيعته، وهذا لا يكون إلا بارتضاء طبيعة الانسان وإعطائها حقها؛ ومن ذلك كان استمرار التضارب بين طبيعة البشر ومطالب التقاليد والعرف؛ وضرر التقاليد هنا هو بيمينه ما أشرت إليه من تأثير عقول الغير، لأن التقاليد هي تراث العقول السابقة، وهي قلما تناسب ظروف القوم في الأزمنة الحاضرة . قال الامام على كرم الله وجهه: « لا تقصروا أولادكم على أخلاقكم فقد خلقوا لزمان غير زمانكم » .

إذن: فالوسيلة الوحيدة، التى يجب تطلبها، لرقى الانسان هي أن يعمل قوى الفكر ويستغل ما وهبته الطبيعة من قوى؛ والكائن متى نجح في جهوده الجسمية والعقلية ليحيا الحياة التى تناسب طبيعته ووظيفته، كان ذلك مدعاة إلى انتقاله من طور إلى آخر أعلى منه، بل كان ذلك باعثا الى ايقاظ قوى شعوره وبذلك يبدأ فى مرتبة نمويز فيها ما يتناسب مع طبيعته، وتكون نتيجة شعور ارتياح، وما لا يتناسب مع طبيعته وتكون نتيجة قلقا وعدم ارتياح؛ وفي الحالة الأخيرة ترشده قوة التميز إلى تحويل وجهته إلى ما يساعده على نموه وارتقائه النوع؛ وهنا نجد السبيل مهدا لقبول نظرية الانتخاب الطبيعى والذى يتفرع منه فى مرتبة أرقى الانتخاب الجنسى: فالانتخاب الطبيعى معظمه عار عن التفكير، بينما الانتخاب الجنسى يكون فيه العقل قد استكمل شيئا من وحدته الذاتية؛ فالانتخاب الطبيعى هو المرحلة التحضيرية التى تمهد السبيل لمرحلة التميز، ومرحلة التميز هذه، أى التى تكون بين الاشياء أولا والاشخاص ثانيا، هي التى تضع الحجر الأساسى لعملية الطموح أو مرتبة النظر إلى المثل الأعلى الذى نستمد منه مبادئنا السامية ونسترشد به فى اتخاذ أصلح الوسائل .

ومعنى ذلك أن الكائن فى اطواره الأولى تكون قواه العقلية عبارة عن خاصية كامنة يظهر تأثيرها بطريقة تدريجية بطيئة، وقد دلت البحوث العلمية فى علم وظائف الاعضاء وعلم الحياة على أن قوة العقل تنمو نسبيا بنمو قوة تماسك الخلايا والاعصاب الحية، ولذلك كان الطفل الصغير فى قواه العقلية أقل منه فى الراشد أو الرجل، ماعدا الحالات الشاذة طبعاً، فالولد الأمريكى الذى استكمل رجولته فى سن السابعة شاذ لا محالة .

وهنا يجب أن نسلم بأن المرتبة التى تنزع فيها شمس العقل هي مبدأ المرحلة التى يصبح الانسان فيها يتميز بعملية التفكير وما يتبعها من شعور بالألم أو الارتياح عن الاخفاق أو النجاح .

ومن أثر المرحلة التي يقطعها الكائن على هذا النمط تنشأ في الجسم فضيلة المثابرة على الكفاح والمقاومة .

(وقد كانت ، ولا تزال ، بعض الأمهات في قبائل الاسكيمو تضع طفلها خارج الكوخ الثلجي ليلة كاملة عقب ولادته ، فإذا عاش حتى الصباح أقبلت عليه الأم فرحة واعتنت بأمره لأنها تثق عندئذ بأنه سيكون رجلاً ذا مناعة ومقاومة ، وأنه سيستطيع التغلب على صعاب الحياة ، وإذا وجدته ميتاً فإنها تسر أيضاً حيث ترتاح من وجود فرد ضعيف لا يستطيع حماية نفسه ، وسيكون بلا محالة عالة على غيره) .

هذه هي النزعة التي توجد بالفطرة عند من يشعرون بعظم مسؤولية الحياة ، وقد علمتهم الطبيعة درساً أخلاقياً ، وحملتهم على التفكير في أمر من سيكون عالة على غيره من أفراد المجتمع . من ذا الذي يظن أن هذه المدنية الفطرية أقل من مدنيتهما وقد قصرت مدنيتهما العظيمة (بالوهم) وسعة افكارنا عن اعطائنا هذا الدرس الاخلاقي ؟

لننظر إلى أعمال الحكومة وتصرف الرؤساء في أي بلد ، كم من منصب ذي مرتب ضخم أسند لمن ليست عندهم خبرة ولا مقدرة فكانت النتيجة أن ساءت الحال من جيم الوجوه وضاعت الأخلاق ، واختل نظام العمل ، وشعر العالم الجدد بحيف أودى به إلى اليأس ، وأصبحنا لا نعرف بعضنا البعض بألقاب الكفاءة في العمل ؛ وإنما بألقاب أخرى حديثة (كالمستأر والورد كذا أو المسيو فلان أو الباشا فلان أو مسوب الرئيس كذا والمضطهد من حزب كذا أو فلان واسمته فلان الخ)

ألا فلنعمل على محو هذه الألقاب ، ولتكن عند كل منا الشجاعة الأدبية ، فيقاوم هذا التيار المرذول الذي أودى بمجهود الأفراد العاملين ، وأسقط مستوى الأخلاق إلى حد بليغ . ما الأمة إلا بأفئادها ، وما الأفراد إلا بأعمالهم ، وما الأخلاق إلا ثمار الخبرة والعمل الشريف المكتسب عن جدارة واستحقاق .

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا
وسنتناول في فرصة أخرى الكلام على ما وقفت عليه من نظريات في هذا الموضوع الجليل ما
نظرة الحكم

الى حضرات المشتركين

ترجو الادارة حضرات المشتركين الذين لم يسددوا قيمة اشتراكهم أن يبادروا بإرسالها
رأساً إلى إدارة المجلة ولهم الشكر ما